ومع نشوب الانتفاضة الفلسطينية، فقد القى الجيش الاسرائيلي بجنوده على شوارع وساحات الضفة والقطاع، في مواجهة الجماهير الفلسطينية الثائرة، حيث احتدم، منذ ذلك الوقت، صراع ادواته الحجارة والزجاجات الحارقة والمقاليع والهراوات، وحيث لمس الجنود، في عيون الرجال والنساء، الكراهية الشديدة للاحتلال الذي يجسّده الجندي الاسرائيلي. وليس من قبيل الطرفة ان العديد من الجنود الاسرائيليين اكتشفوا، للمرة الاولى، أنهم جنود احتلال. قال ضابط في سلاح المظليين: «لقد تحوّلنا الى جيش احتلال يقوم بملاحقة الاولاد، وبدأنا نشعر بأنفسنا وكأننا جيش احتلال»[٦٥]. فالجيش الاسرائيلي لم يكن، قبل الانتفاضة، متورطاً في صراع مباشر ضد الجماهير الفلسطينية. أما اليوم، فانه أصبح في ميدان الصراع، وجهاً لوجه، ضد الجماهير الفلسطينية المكافحة في سبيل تحررها. ولعل هذا هو ما قصده يورام بيري، حين كتب: «ان الجيش الاسرائيلي، الذي لم يكن جيش احتلال في سنة ١٩٦٧، سيكون على هذا النحو بالتأكيد، منذ الآن»[٦٦]. فالجندي الاسرائيلي، الذي تمّ اعداده لخوض حرب نظامية خارج الحدود، يجد نفسه محاصراً بجماهير غاضبة، تقذفه بالحجارة والكراهية. ويجد نفسه أمام مهمة مستحيلة. قال ضابط اسرائيلي خدم في مخيم جباليا، في قطاع غزة: «انني انهي خدمة الاحتياط هذه بشعور ثقيل جداً. الجيش لا يستطيع ان يعطي رداً بدلاً من المؤسسة السياسية. وهناك حد للفترة التي يمكننا فيها السيطرة على القطاع... تسأل اذا كنّا خفنا ؟ بالتأكيد، ثمة خوف. نخاف من الوقوع وسط جمهور هائج. نخاف من الحجارة التي تطير في الهواء؛ فجأة ودون توقع، ترتج من الحجر أو الزجاجة الحارقة؛ الجو مليء بالنار وصرخات النساء المسنّات، والاحساس بالوهن»[٦٧]. لقد أصبح الخوف والاحباط هما الجامع المشترك لغالبية الجنود الاسرائيليين المنخرطين في الصراع الدائر في المناطق المحتلة. وقد قدم جويل غرينبرغ الوصف التالي لمجموعة من الجنود الاسرائيليين المرابطين في منطقة رام الله: «ان الاستنزاف المعنوي والجسدي يبدو واضحاً على وجوه الجنود الذين يروحون ويجيئون على شوارع رام الله؛ يفتحون المحال بالعتلات، ثم يعودون لفتحها بعد ان يغلقها أصحابها. انهم متعبون من الوقوف على أقدامهم لساعات طويلة مثل شرطة المرور؛ متعبون من هذا الطقس اليومي من الدوريات، وفتح المتاجر بالقوة؛ متعبون من الانذارات الليلية، ومن البحث، بلا جدوى، عن راشقي الحجارة»[٦٨]. وصوّر أحد الجنود الاسرائيليين الحالة المعنوية لجنود وحدته، العاملة في قطاع غزة، بـ «ان روحهم المعنوية، جميعاً، منهارة. عندنا مجموعة من اليساريين، وأخرى من اليمينيين. هناك أعضاء كيبوتسات وهناك سكان مدن، ولكن بعد الكابوس الذي مرّ علينا هذه المرة، يقول لك كل من تتحدث معه: من يحتاج الى وكر الدبابير هذا ؟ فليخرجونا من القطاع؛ فليعيدوا غزة وخان يونس الى مصر، أو الاردن، فليعطوا جباليا، النصيرات، دير البلح، والبريج، وكل مخيمات اللاجئين هذه، الى من يريدها. نحن لسنا بحاجة اليها»[٦٩]. وقال ضابط مظلي من كيبوتس شعار هغولان: «انني، كقائد، أشعر بأن الامور تسير نحو الاسوأ. فأنا غير مدرب لهذه الغاية. انك تركض وراء اولاد لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، وكأنك مجنون... انه لا مستقبل لنا هناك، بالمقارنة مع الكراهية المتزايدة. ان الكراهية تزايدت مع مرور السنوات، ومن الضروري التفكير ماذا ستكون بعد ذلك ؟»[٧٠].

لقد بدأ المعنيون بالحالة المعنوية للجيش الاسرائيلي يقرعون ناقوس الخطر، خاصة بعد ان تفشّت مظاهر الاحباط وتردي الروح المعنوية بين الجنود العاملين في الضفة والقطاع. كما برزت تخوّفات من انعكاسات استخدام العنف على الجنود وعلى المجتمع الاسرائيلي ككل. ففي شباط (فبراير) الماضي، حذّر طاقم من علماء النفس في الجيش الاسرائيلي من سياسة «القبضة الحديدية» على